

## القديس أفرام السرياني ووصيته الأخيرة<sup>١</sup>

إني أنا أفرام أسجل وصيتي قبل وفاتي. مخلفاً في ذلك ذكراً للجميع ولأصدقائي. ويلٌ لي فقد مر زماني، وانتهى عمري. أمسى نسيجي قصيراً، وقطعه قريباً. قلّ زيت سراجي وزالت أيام حياتي. الأجير انتهى حوله والغريب أكمل زمانه. أحاط بي الخفرة وملانكة الموت. أولول وأندب وليس من يسمعي وينقذي. ويلٌ لك يا أفرام يوم تنتصب أمام منبر الله لتدان. يوم يحف بك أصدقاؤك يميناً وشمالاً. فيعتريك الخجل والوجل. يا يسوع تولّ أنت دينونة أفرام ولا تكلف بها أحداً غيرك. لأن من حاكمه الله صادف الرحمة. على أني سمعت الحكماء والعلماء يقولون أن من واجه الملك نجا من الموت ولو مذنباً. أن هوشع يُرعبني ويعنفني ويقرّ عني بقوله: "فشا الشيب في أفرام وهو لم يدر (٩:٧). وأفرام عجلة متدربة تحب الدراس (١٠:١١) وقد أفلتت من النير. فإن قال قائلٌ أن هوشع قصد بذلك أفرام بن يوسف قلت أن النبي لم يميز بيني وبينه. غير أن داود يبهجني بقوله "أفرام خوذة رأسي (مز ٩:٥٩). لست أقصد الشرف بقولي فإنه تعالى يعرف سرائري. بل بغيتي يا أخوتي أن أوصيكم وأعلمكم وأرشدكم كي تذكروني عند مطالعتكم أقوالي.

هلموا الآن أغمضوني فقد صدر الحكم عليّ بالموت وتأكد أمر ارتحالي. وحقّ حياتكم يا تلاميذي وحياء أفرام أن السرير الذي علوته لن انحدر منه حتى أموت. حسبي عذاباً وعناءً ومشقة. إني أقدم لكم أمثلة وأعرض عليكم دستوراً لتتبعوا فيه وتجتهدوا في الأخذ عنه. إني ما شتمت ولا خاصمت أحداً البتة في كل عمري. لكنني قاومت الهراطقة في النوادي أسوةً بكلبٍ لمح ذنباً يهجم على الحظيرة فسارع إليه ونبج عليه لئلا يشج صاحب الغنم رأسه. ان الحكيم يبغض الأحمق أما الأحمق فلا يجب ألا قرنه.

وحقّ من انحدر على جبل سينا وتكلم على الصخرة السماء وقال الهي الهي فتزلزلت أسس المسكونة. وباعه يهوذا وجلده الأعداء في أورشليم ولطموه وبصقوا في وجهه الواضح. وحق الأسماء الثلاثة النارية والإشارة الواحدة والإرادة الواحدة. إني ما شككت في الكنيسة ولا في قدرة الله. لا رحمني الله أن كنت فضلت الأب على ابنه. ولا أبقي الرب على عيني أن كنت نقصت الروح القدس الله. ألقاني الله في الظلمة ان كنت أرأيي بقولي. وأحرقني مع الأشرار بالنار ان كنت أمدق. وأنكر عليّ طلبتي يوم الدين ان كنت أكذب.

لعمركم يا تلاميذي ولعمر أفرام. ان أفرام لم يفتن كيساً ولا عصاً ولا همياناً (متى ١٠:٩) لأنني سمعت الرب يخرج علي ذلك.

<sup>١</sup> رأينا أن نتحف قراء المجلة الأجزاء في عددها السادس بخلاصة الوصية الأخيرة التي خلفها هذا الملفان الجليل لتلاميذه لما شعر بدنو رحيله. وقد نشر المستشرقون ولا سيما العلامة أوفريك Overbek الشهير سنة ١٨٦٥ نصها السرياني عن عدة نسخ مصونة في دار الكتب بلندن وغيرها يرتقي عهد كتابتها إلى القرن السابع والثامن والتاسع. ومما لا ريب فيه أنها من قلم الملفان عينه خلافاً لزمع من ذهب إلى أن مصنفها هو أحد تلامذته. وبرهاننا على أنها لمار أفرام لا لغيره هو أن نص بعض آيات الكتاب الواردة فيها مطابق كل المطابقة للنسخة السريانية السابقة للترجمة البسيطة فشبطة. وكل ما يمكن القول عنها على سبيل التخمين هو أن بعض النساخ زادوا شيئاً على نصها الأصلي كالخبر مثلاً عن لمفوطا بنت أمير الرها الخ... ويلوح للبيب من نصوصها الدقيقة أن موصيها القديس لفظها وهو على فراش المنون في فترات مختلفة. وها إننا بعد هذا الشرح نورد تعريب هذه الوصية البديعة التي تعد أثنى وراثتها خلفها هذا الملفان الذي بكل صواب قيّارة الروح القدس.  
(عن: )

تعالوا يا أخوتي حيوني وودعوني فإني راحل. أستحلفكم يا أحبائي أن تذكروني في صلواتكم وابتهاالاتكم فقد انتهت أيامي وساعاتي. أستحلفكم يا تلاميذي بالإيمان المحرّجة أن لا تخالفوا مراسيمي ولا تنقضوا وصاياي. من دفنني تحت المذبح حرّمه الله مشاهدة المذبح السماوي. إذ لا يصلح للرائحة الكريهة أن تُجعل في الموضع المقدس. من دفنني في البيعة حرّمه الله رؤية البيعة السماوية. فإن المجد الباطل لا يفيد من كان على شاكلتي. كلُّ ينتصب عرياناً ويؤدي الجواب عن نفسه. ولعمري ما فائدة الكرامة لمن يحتقر نفسه. فالذي يحتقر نفسه يحتقره العالم أيضاً. كل شيء يزول كما قال الرب (متى ٢٤: ٥٣). فلذا أبكي منتحباً يا أخوتي وأقول: إن الهيكل المبني بالحجارة ينتقض كما سمعتم وقرأتم. أما الهيكل الجسدي فإنه ينبعث ليحاكم ويُجازي. فإن ربنا لا يدين الحجارة بل يدين البشر. لا تتكلموا علي يا أحبائي وأخوتي وأولادي أبناء الكنيسة المقدسة بل ثقوا بقول ربنا ديان الجميع. فإذا وثقتم بقول أفرام جرّرتهم إليه الملامة وجعلتموه عرضة لسمع الرب يقول له: إنهم آمنوا باسمك أكثر مني. وانهم لو وثقوا بي واتكلوا علي ما التمسوك أن تذكرهم.

لا تدفنوني مع الشهداء لأنني أتيّم وحقيّر. وأخاف التقرب من عظامهم لسبب زلاتي. لا، الهشيم يحترق تجاه النار ويضمحل. لست أنفر من التقرب منهم لكنني أتخوف من نقائصي. وقد سمعت النبي يقول: إن نوحاً وأيوب ودانيال لا يخلصون أنسابهم. وان "الأخ لا يخلص أخاه" (مز ٤٨: ٨).

من شيعني على يديه جربت يده كحزري. احملوني على أكتافكم وشيعوني سريعاً. وادفنوني دفن خاملٍ لأنني أسرفت أيامي مخجولاً أمام ربنا. لا تغبطوني فإن أعمالتي مفتضحة. لو عرفتم أثماتي لبيصقتم في وجهي. ولو انتشرت رائحة خطاياي القذرة لانهمتم كلكم مني. من وضع معي برنساء طرحه الله في الظلمة البرانية. ومن وضع معي قميصاً ألقاه الله في جهنم النار. ادفنوني بقميصي وقبعي لأن الزينة لا تجدي القبيح نفعاً. والمجد لا ينع الميت الملحود. إني خاطئ كما قلت فلا يغبطني أحد لأن أعمالتي واضحة تجاه الله. وأثماتي غير خافية عنه. لعمري أي أثم أم أي ذنب لم أقرّفه فإني منشبت بكل فكر سيء كما قلت.

انهضوا أيها الرهاويون يا أخوتي وسادتي وأولادي وأبائي. وهلموا ما ترومون من النذور والتحف لأخيك فأحدد لها سعراً ما دمت صاحباً. وأنتم بيعوها واشتروا بأثمانها ما يصلح للفقراء والمساكين والمحتاجين ووزّعوها عليهم. فتستفيدوا أنتم لأنكم جدتم بها وأستفيد أنا لأنني تخلّيت عنها. ومن المقرر أن ثواب الأعمال غير ثواب الأقوال. والواهب يا أحبائي أفضل من الآخذ. إني أشكر لكم يا أخوتي هديتكم التي لا أستاهلها أنا الأتيّم وأذكركم بقول الرب: "من يقبل نبياً (باسمه) فأجر نبيّ يأخذ (متى ١٠: ٤١). اثابكم السيد المسيح على تقدماتكم يا أحبائي لأنكم وهبتموها حباً له ورجاء به. تقبل الرب هداياكم وأولادكم أجر نبي مع أني لست نبياً. تباركت الرها مدينتم حاضرة الحكماء وقد باركها ابن الله بفمه الحي بواسطة تلميذه. صحبتها البركة إلى يوم ظهور القدوس. من تخلف عن إيفاء نذره أصابه ما أصاب حننيا إذ حاول أن يخدع الرسل فافتضح أمره للحال وأماته الله (أعمال الرسل ٥).

من شيعني بالشموع تسعرت النار في قلبه. ليت شعري ما فائدة النار لمن ناره منه. فإن النار الظاهرة متى انقادت أطفأت النار الخفية. حسبي وجعي الظاهر فلا تضيفوا إليه وجعاً خفياً. أفيضوا بالبكاء يا أخوتي علي وعلى نظرائي لأنني أنفقت أيامي بالأثام وقد أدركني اللص في وقت لم أعرفه وفي ساعة لم أظنها لينقلني إلى مكان أجهله.

أستحلفكم يا ملاك الموت ألا تعذبني وتؤلمني ولا تعاملني كذنوبي لنلا تحيط بي الأهوال. كلما ذكرت ما أسلفت اصطكت ركبتاي وأسنانني والتصق لساني بحنكي وأخذتني الرعدة لأنني ما اصطنعت صنيعة تذكر منذ ولدتني أمي حتى اليوم.

حذار أن تضعوا معي بخوراً لأن اكرامكم إياي بالروائح الذكية لا يجديني نفعاً أوقدوا  
البخور في المذبح وشيعوني بالصلاة. قربوا لله تعالى البخور، ولي الطلبات والمزامير وصلوا علي.  
فالرائحة الطيبة لا تفيد ميتاً لا يشعر بها. بخروا قدس الأقداس ليلتمذ بعبيره الداخلون إليه. إياكم أن  
تضيفوا إلى الزبل القدر حرائر لا تفيد. دعوه ملقياً في المزبلة حيث يتعذر عليه أن يشعر بالكرامة.  
للغني الغنى وللفقير المزبلة. لا تدفنوني يا إخواني في مقبرتكم لأن حفاوتكم هذه لا تنفعني. فقد عاهدت  
إلهي أن أدفن في مقبرة الغرباء لأني غريب مثلهم. على أن كل طير يأوي إلى شكله وكل امرء إلى  
شبهه. إذا دفنوني حيثما يُدفن الخاملون ريثما يأتي ابن الله فيبعثني معهم.

انظر يا رب إلى عهودي وأفض عليّ مراحمك. سألتك يا ابن الله الرحيم ألا تعاملني كذنوبي.  
لأنك إن كنت للأثام راصداً يا رب يا رب فمن يثبت (مز ١٢٩: ٣) وان حاكمتنا محاكمتنا بعضنا  
بعضاً "لن يتبرر قدامك أحد" (مز ١٤٢: ٢) وقد قيل "لكي يستد كل فم وينخصم العالم كله لله" (روم  
١٩: ٣). لست أقطع خيط الرجاء بيد أني أردد ما هو مكتوب. ثرى ما فائدتك يا ابن الله الحنون لو  
ذهبت إلى النار. ألا فارحمني كعادتك وأظهر في نعمتك لأنك إن حاكمت أحداً بعد ذلك فلن يوجد  
صالح واحد بين ألف ولا اثنان صالحان بين ربوة.

مهلاً يا أفرام أتروم أن لا انتقم من البشر فيغدو الأبرار والأشرار والصالحون والأثمة على حد  
سواء؟. أتى للنور أن يشارك الظلمة. وأتى لهابيل وقايين أن يتفقا معاً. بل أتى للشهداء أن يساكنوا  
مضطهديهم وهم لا يزالون يتظلمون مما أذاقوهم من العذابات؟. أجل يا ابن الله الصالح لست أقول أن  
يوازي الأبرار والأشرار بل ألتمس أن تتحنن عليّ وعلى الخطاة أمثالي فقد قلت وأقول قولاً فصلاً  
وهو إن كنت لا ترحم حُرَم الجميع الملكوت. لأنه ما بين الذين لبسوا الجسد ما وجد إلا بار واحد فقط.  
حاشا لي أن أنجي بذلك ذاتي يا أخوتي لأني خاطئ بل أقرر بقولي حقائق راهنة.

كأن ملاك الموت ينتهني قائلاً فذك يا أفرام تنطق بالحكم فإن ذلك قلما يفيدك وقد دنا أجل وفاتك.  
كأنني به يتهددني قائلاً أسد فاك فإن الناس ليسوا هلكى يتوهم البشر عمياناً نظيره.

هلموا يا تلاميذي فقد انتهى عمري. زدوني بالصلوات والمزامير والقرايين. ومتى انقضت  
الثلاثون يوماً اذكروني يا أخوتي لأن الموتى ينتفعون من تذكارات الأحياء. والمثل في ذلك الخمر في  
الخابية والحصرم في الكرمة. فالحصرم متى حان نضجه تحركت الخمر في الخابية. والبصل  
الكريهة رائحته يئب وهو مخزون في البيت نبات البصل في الحقل عند استوائه. فعلى مثال ذلك  
يشعر الموتى لما نذكرهم. فإذا ادعى مدع أن ذلك غريزي. وطالبني البرهان عليه قلت مهلاً فأورد  
مثلاً من الكتاب موافقاً: أن موسى الكليم ذكر روبيل (روابين) بالبركة بعد موته بثلاثة أجيال (تثنية  
٦: ٣٣) فلوم ينتفع روبيل بذلك لما ذكره موسى. وبولس الرسول يعلمنا قائلاً: ماذا يصنع أولئك الذين  
يعتمدون من أجل الأموات إن كان الموتى لا ينبعثون (١ قور ١٥: ٢٩). وعلام نختلف نحن دائماً إلى  
المذبح لأجل الموتى. وما الذي حمل آل متتيا المقابيين على ذكر الذين سقطوا في الحرب غفراناً  
لخطاياهم وقد كانت مشاربهم مختلفة (١٢: ٢). فكهنة ابن الله إذا يغفرون خطايا الموتى بقرايينهم  
المقدسة والبرارة. أجل إن إثم الزنا فطبع ولكن من الأثام ما هو أشنع وأفظع. فلا تضطروني أن  
أجوب الله عنكم يا أحبائي متى قال لي عز وجل: يا أفرام إنما قصدت الزناة والفجار بقولك مع علمك  
بأنني أنا هو الديان وحدي. فما عساني أن أجوب إذ ذاك يا أحبائي. إنني أخاف خوفاً شديداً ومن ثم  
فأكرر ما قلته آنفاً وهو أن من دانه الله صادف الرحمة. على أن الشهوة الجسدية تحاكي خميراً في  
العجين وناراً في الحطب فمتى ثارت في الإنسان أكلته وأتلفته.

هلموا يا تلاميذي فأبارككم مباركة الراعي العادل. أنا لست كنوح فتباركوا أنتم كسام ويافت.  
لست كملكيصادق فكونوا مباركين كابراهيم. لست كاسحق فهلموا أبارككم كييعقوب. لست كموسى  
فكونوا أنتم كيشوع بن نون. لست كاييليا فاقبلوا أنتم روجي كاليشع.

يا أيها الأنبا تلميذي يا رجل العجب عظم المسيح ذكرك وأضاءك كالملائكة وأراك كموسى ليعرفك من رآك انك صفي الله. يا تلميذي ابراهيم استجابك إله ابراهيم وأوعب فاك حكمة كلما رمت أن تتكلم وصحّ فيك قوله "أوسع فاك فاملأه" (مز ٨٠: ١١). يا سمعان سمعك الله كلما دعوته في الضيق. ووقفك أن تؤسس كنيسة في كل بلدة تدخلها. فتصدقك العرائس والعذارى المحصنات ويسمعن من فيك الحكم ويأخذن عنك ما ينفع خلاصهن ويكسبنه فوائد روحية. ذاع ذكرك في الأمصار ذبوع الطبيب في المعسكر. يا تلميذي مارا الأجلي أيها الطهور الوديع طبعاً والبسيط طوعاً. أجزل لك الرب ثواب الأبرار والصديقين لأنك تبعنتني في الضيق رجاء بالمكافأة. يا تلميذي زينوب الجزري الباسل الشجاع جعل الله كلمتك كالنار تلتهم هشيم الأوثان فتلتقط العلوم التقاط اللهب للعشب وتغلب الكفرة غلبة داود لجليات وتتسلح بدرع الأنبياء وخوذة الرسل ويكون الرب معك فلن تتكسر أبداً...  
تبارك الرب الذي اصطفى الكنيسة المقدسة كنعجة لم تنهشها الذئاب وحمامة نقية لم يقو الباشق على مساءتها. "فإن الكأس بيد الرب وخمرها مختمرة... لكن عكره بمصه ويشربه كل خطاة الأرض" (مز ٧٤: ٩). وقد تجرّعها الكفرة وخرجوا على يسوع ربهم ككلاب كلبة وجدفوا عليه. سبحان من هو أسمى منهم. وهيهات أن يصلوا إلى عرشه الرفيع. فلو تمكنوا من ذلك لأثاروا في السماء فتنة وخصومة أسوء بأقرانهم الأشقياء يوم حاولوا البلوغ إلى العلو فباغتهم العدل الالهي وحطمهم وأخزاهم. فأى قضاء يا ترى أم أي عقاب يحل يا أخوتي بمن اتقح فادخل انقساماً بين الأب والابن والروح القدس؟

فأنتم يا تلاميذي اثبتوا راسخين في تعليمي وإيماني. من ارتاب في الله شرده الله كقايين. ومن نقص الابن عن الأب أهبطه الابن إلى القبر حياً. ومن جدف على الروح القدس أنكر الله عليه المغفرة. من شك في الكنيسة اعتراه الجرب كجزبي. ومن مرق من الدين انشق من وسطه كيهودا. إياكم والتجديف يا أحبائي فإنه إثم فظيع. لأن المجدف الكافر يذنب إلى الله توأ. تكفيننا شهوات الجسد فلا نصف إليها إثمًا آخر. إنما يوطد رجائي وثقتي بك يا ربي هو اني ما شتمتك ولا جدفت عليك قطعاً واصلاً. لكني أبغضت من ناوأك وقاومت من عاداك.

اكتبوا عباراتي على صفحات قلوبكم فإن الكفرة سيلاحقونكم بعد وفاتي متقمصين حلود الحملان وهم ذئاب خاطفة. كلماتهم حلوة ومضمراتهم مرّة. يتظاهرون كإبليس بالصلاح والورع. فانهزموا منهم واعلموا أن من تكلف أن يتزياً بزبي الملك افتضح أمره وقضي عليه ولا تفيده حججه مهما اعتذر أو تنصل.

إياك ومعاشرة الضالين ومجالسة الكفرة الملحدين. خيرٌ لك أن تجالس الشياطين من أن تساكن الكافر. لأن الشيطان متى استحلفته باسم يسوع أو ذكرته له ولى منهزماً. أما الكافر فلن يحجم عن عناده وقحته مهما استحلفته. فاقناع الأبالسة أيسر من اقناع الملاحدة. لا، الأبالسة أقرؤا جهرةً بأن يسوع هو ابن الله (مرقس ٥) أما الكفرة المعاندون فيدعون الخلاف مكابرين. فالدلب لا يثبت إلا على مجاري المياه كقول النبي (جز ٣١: ٨ وسيراح ٢٤: ١٩) ومع هذا فنبات الدلب على الصفاة وانخفاض الجبل (أشعيا ٤٠: ٤) أيسر من رجوع الملحد عن غيه. أيسر للخفاش أن يبصر الضو من أن الخبيث يبصر نور الحق. أيسر للثلج أن ينحدر في الشتاء ويتكوم على جناح الغراب ويبيضه من أن يرعوي الضال عن ضلاله. فالأشرار لا يخافون العذاب إلا متى سمعوا صدور القضاء عليهم بالهلاك فيندمون إذ ذاك على ما فرطوا وفانت ساعة الندم.

يا تلميذي أصغوا إلى وصيتي ولا تنحرفوا عن معتقدي. اثبتوا راسخين في إيمانكم الحق ولا تتزعزعا خصوصاً متى رأيتم الخصومات هائجة في الدنيا. فلا بد أن يكمل المكتوب ولا يتغير منه حرف واحد. وقال عزّ شأنه قولاً فصلاً: السماء والأرض تزولان وكلامي لا يزول (متى ٢٤: ٣٥).

يا أفرام حسبك تأتي بالبينات الصادعة فقد وافاك ملاك الموت. تهباً إذا للرحيل. استحلفك يا ربي يسوع استحلاف رجلٍ لرفيقه وأرجوك أن لا تقيمني عن يسارك يوم ظهورك في مجدك العظيم. وحقّ حياتكم أنني لا أكذب فيما أقرّره وهو أنني لما كنت مضطجعاً على صدر أمي رأيت حلمًا صار حقيقياً. أبصرت كرمة نبتت في لساني ونمت وارتفعت حتى بلغت السماء وأثمرت ثماراً جمّة وأورقت أوراقاً لا عدد لها. طالت وامتدت واتسعت جداً وتقاطر الناس يقطفون عناقيدها. وكانوا كلما اقتطفوها ازدادت وكثرت. فالعناقيد هي إشارة إلى الميامر والأوراق إلى المداريش. والله الجواد هو مانحها. تباركت جودته على ما أسنى إليّ من كنوز ذخائره.

الوداع يا أحبائي. صلوا عليّ فقد حان للتاجر أن يرتحل إلى وطنه. ويح لي لأن أموالني ضاعت وبضائعي تبددت. لا تبكوا على الصالحين فإنهم بموتهم يفوزون بالراحة بل ابكوا يا اخوتي عليّ وعلى نظرائي لأننا أسرفنا أيامنا وزماننا دون جدوى.

الوداع أيتها الأرض فلنلبث سكانك مبهجين. وليملك السلام في الكنائس. وليمحق اضطهاد الكفرة. وليتبرر الخطاة.

عليك السلام أيها الملاك الذي يفصل النفس عن الجسد هلمّ أفصل نفسي عن جسدي حتى يوم النشور...

الحواشي:

- (١) طالع الفصل ١١٥ من كتابه في الكنيسة الكنسيين
- (٢) طالع سيرة مار أفرام طبع العلامة لامي ج ٢ ص ٥١ و ٧٤
- (٣) طالع مين ج ٤٠ ص ٧١٩ - ٨٥٠